أي مواطن ومواطن سواء انتمى المواطنان الى جنسية واحدة ام اختلف انتماؤهما ؟ في اعقاب كل حادث (فردي يتحول الى مشكلة عامة) يقال ان « عناصر مدسوسة » على العمل الفدائي هي التي كانت وراءه ، او ان « فريقا ثالثا » هو الذي افتعل الحادث « لمصلحة اسرائيل والاستعمار الخ » ، او ان « العناصر غير المنضبطة » في حركة المقاومة هي التي تسببت في اثارة المشاكل . الى اي مدى تعتبر هذه « المبررات » أسبابا حقيقية لهذه الحالة وهل يمكن فعلا ان يتسبب « عنصر غير منضبط » في اشعال نار معركة يشارك فيها «عناصر منضبطة» تدفع هي دون غيرها ثمن النتائج من دمائها ومن سمعة حركة المقاومة التي تنتمي اليها ؟ لنفترض جدلا ان عنصرا مدسوسا استطاع ان يفتعل صداما بنية خبيثة وبقصد جر حركة المقاومة الى صدام أوسع لاهداف تخدم فعلا اسرائيل والاستعمار ، لنفترض ان ذلك يحدث فعلا ، فهل استدراج حركة المقاومة الى مثل هذا الصدام الواسع يتم بهذه السهولة وبهذه الخفة ؟ هل هي استجابة غير ذات عقل ، آلية لا تقدر النتائج ، وفاقدة الوعي باحتمالات مثل هذه النيات الخبيثة ؟

في تقديرنا ان تلك هي مبررات تخفيفية لاسباب أعمق تغوص جذورها في طبيعة العلاقة بين حركة المقاومة من جهة وجملة الاوضاع العربية وتفصيلاتها من جهة اخرى . وهي علاقة لا تعود فقط الى الصلة المباشرة بين حركة المقاومة وهذه الاوضاع وانما هي تشكلت تاريخيا منذ كان الفلسطينيون في الشتات يعانون من نمط من العلاقة غير طبيعي تكثف متراكما بعد ظهور المقاومة . ونشير هنا الى حادث الدكوانة كمثل تفصيلي على هذا التعميم .

في ٧/٢٧ حدث خلاف في محلة الدكوانة القريبة من مخيم تل الزعتر في ضواحي بيروت بين العنصر الفدائي ابو الموت واحد أعضاء حزب الكتائب اللبنانية (ابراهيم جدعون) انتهى بمقتل الفدائي واصابة الكتائبي اصابة خطيرة في رأسه . أجمعت المصادر كافة والاطراف جميعا على ان الحادث شخصي وليس له خلفيات لدى المقاومة ولا لدى الكتائب . وقد رافق الحادث اشتباك سريع جرى تطويقه من جانب حركة المقاومة والكتائب معا . بعد يومين اي في ٧/٢٩ اندلع الاشتباك مجددا في المنطقة (مخيم تل الزعتر والدكوانة) على نطاق واسع واستخدم في الاشتباك مختلف الاسلحة وأسفر عن مقتل عدد من الطرفين وجرح آخرين . بعد مفاوضات واتصالات كثيرة جرى ايقاف الاشتباك وتسيير دوريات مشتركة من حركة المقاومة والكتائب والامن اللبناني للفصل بين المتقاتلين ، بعد أن أعلنت الاطراف المعنية حرصها على عدم توسيع الاشتباك وأكدت مصلحتها في ايقافه . هذا باختصار « شكل » الحادث الذي كان يمكن ان يظل عاديا لو حدث بين مواطنين اثنين ليست لهما الصفة التي لابو الموت او لجدعون . غير ان الحادث تطور الى مشكلة وسفك دماء وأزمة بسبب من هذه العلاقة غير الطبيعية التي أشرنا اليها .

قبل أن نوضح ما نعني بهذه العلاقة يتحتم الاعتراف بأن وجود « العناصر غير المنضبطة » في حركة المقاومة لا يمكن ان يمارى فيه ، وان وضع حد لتصرفات هذه العناصر غير الاخلاقية وغير الثورية هو مطلب فلسطيني ثوري قبل ان يكون مطلبا للاخرين ، غير ان الاعتراف بهذا الواقع شيء ومحاولة الايهام بأن ما تتعرض له حركة المقاومة من عداء يكشف من نفسه لمناسبة هذه الحوادث التي هي احيانا فردية في أساسها شيء مختلف تماما . ذلك انه أمر مناف للمنطق ذلك الذي يذهب الى ان عنصرا غير منضبط قادر ، وهو غير منضبط، على تحريك هذه البنادق جميعا وتوجيهها الى صدور الاخرين بهذه السهولة والخفة والسرعة الخارقة دون ان تكون ثمة اسباب كامنة اسفرت عن نفسها في هذه المناسبة . وهذه الاسباب كما أشرنا هي طبيعة العلاقة التي تتحكم بين الفلسطيني وجملة الاوضاع العربية وتفصيلاتها ايضا .

قبل نشوء المقاومة الفلسطينية كان الطرف الفلسطيني في هذه العلاقة ، في كثير من الساحات العربية ، هو الطرف الادنى ، ذاكرة سكان المخيمات في بعض الدول العربية تعج بقصص رجال الامن والمخابرات والدرك يقفون في الساحات يفرضون العقوبات الجماعية ويقتحمون البيوت يفتشون عن « المطلوبين » . بعد ظهور المقاومة ودخول البندقية الى المخيم الفلسطيني نشأت حالة جديدة انهت قصة الدركي الذي يجلد والفلسطيني الذي يلعق كعب الدركي . ولكن بموازاة هذه الحالة كانت محاولات تصفية حركة المقاومة تطرد